﴿وَلَا تَقۡعُدُواْ بِكُلِّ صِرَٰطٖ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنۡ ءَامَنَ بِهِۦ وَتَبۡغُونَهَا عِوَجٗاۚ وَٱذۡكُرُوٓاْ إِذۡ كُنتُمۡ قَلِيلٗا فَكَثَّرَكُمۡۖ وَٱنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ٨٦﴾ [الأعراف: 86]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

الصّدُّ عن سبيلِ اللهِ أعظمُ أنواعِ الإفسادِ، والعاقبةُ لا تكون لأهلِ الفساد

لمّا كان للتَّعميمِ بعدَ التَّخصيصِ، والتَّفصيلِ بعدَ الإجمالِ له، موقعٌ في النُّفوس ما لا يخفى، وكان النَّهيُ عنِ الإفسادِ بالصَّدِّ عن سبيل اللهِ هو المقصود بالذّاتِ؛ لأنَّه ينهى عن كلِّ فسادٍ، خصَّه بالذِّكر إشارةً إلى أنَّه زبدةُ المراد بعد التَّعميم، فقال: ﴿وَلَا تَقۡعُدُواْ﴾[1]، ووجه آخر لمّا بدأ شعيبٌ ﷺ بدعوتهم إلى عبادةِ اللهِ وتوحيدِه؛ لأنَّه ركنُ الدِّينِ الأعظمُ، وثنَّى بالأوامرِ والنَّواهي المتعلِّقةِ بحالِهم الغالبةِ عليهم، جاء الأصلُ الثّالثُ من دعوتِه، فذكرَ النَّهيَ عنِ التّعرُّضِ للنّاسِ بقطعِهم الطُّرقَ، وصدِّهم النّاسَ عن دخولِ المدينةِ الّتي كان بها شعيبٌ؛ لئلّا يغشَوا مجلسَه ﷺ، ويسمعوا دعوتَه، ويؤمنوا به، فالدَّعوةُ قد وُجِّهَت أوَّلًا إلى أقربِ النّاس إليه في بلدِه ثمَّ إلى الأقربِ فالأقرب منهم، وممَّن يزورُ أرضَهم[2].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿وَلَا تَقۡعُدُواْ﴾: القعود يُقابِلُ القيامَ، ويُعبَّرُ بالقعود في المكانِ عن ملازمتِه، ومطاولةٍ في الوقتِ فيه، ومنه قواعدُ البيت أساسُه، كما يُعبَّرُ عنِ التّرصّد للشَّيء بالقعودِ له.

2) ﴿تُوعِدُونَ﴾: الوعدُ يكون في خيرٍ أو شرٍّ، يُقال: وَعَدتُهُ بنفعٍ

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 7/461.

(2) رشيد رضا، تفسير المنار: 8/474، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/246.

وضرٌّ، والوَعِيدُ في الشّرّ خاصّة، تَوَعَّدتُهُ تَهَدَّدتُهُ، و﴿تُوعِدُونَ﴾ الآية منَ الإيعاد؛ بمعنى: تهدّدون وتُخوِّفونَ[1].

3) ﴿تَصُدُّونَ﴾: يدورُ معنى الصّدِّ على اعتراض بقَوِيٍّ أو كثيف، يَرُدُّ المقبل أو يمنعه كالجبل، وصَدَّه عنِ الأمر: مَنَعه وصَرَفه، وتصدَّى لفلان: تعرّض له، ففيه معنى الاعتراضِ والصَّرفِ والرَّدِّ.

4) ﴿سَبِيلِ﴾: يأتي السّبيلُ في الاستعمال بمعنى الطّريق المادّيّ، وبمعنى الطريق المجازيّ، ويُستعمَلُ في الخيرِ وفي الشّرِّ، بحسبِ ما يُضاف إليه، مثل: (سبيل الله)، و(سبيل الطّاغوت)، وإذا أُطلِقَ يختصُّ بما هو الحقُّ، والسّبيل تذكّر وتؤنّث، والأغلب والأفصح التّأنيث[2].

5) ﴿تَبْغُونَهَا﴾: بَغَى الشّيءَ يبغيه: طلبه على سبيل التّزايدِ في الطّلب والمبالغة فيه، ومنه بغي المطر، وهو شدّتُه ومعظمُه. وبغى عليهم: عَدَل عنِ الحقِّ واستطال وظلمَ، ففيه معنى التّزيّد في التّعدي، وكلُّ مجاوزةٍ وإفراطٍ على المقدار الّذي هو حدُّ الشّيءِ يُقال له بَغْي. والبغي هنا على معنى تجاوز الحقّ إلى الباطل[3].

6) ﴿عِوَجًا﴾: أصلُ الكلمة يدلُّ على عطفٍ عن حال الانتصاب، والعَوَجُ هو ميلٌ في شيءٍ ممتدٍّ كالميلِ في الحائط، والعَوَجُ يُقال في المحسوساتِ، كاعوجاجِ الحائطِ والعودِ والعصا. والعِوَجُ يُقال في المعاني كاعوجاجٍ في الدّين والمعاشِ، والأعوَجُ يُكنَّى به عن سيّئ الخلق.

وسائرُ ما جاء من تركيبِ ﴿تَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾ في القرآن للخطاب أو الغيبة؛ بمعنى: يطلبون لسبيل الله اعوجاجًا، بإيهامِ النّاس ذلك[4].

❁ المعنى الإجْماليُّ:

ولا تجلسوا بكلِّ طريق تهدّدون المؤمنين بالقتل، وتخوّفونهم، وتردُّون عن طريق

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات: (وعد)، وابن الهائم، التّبيان في تفسير غريب القرآن، ص: 167.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (سبل).
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (بغي).
(4) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (عوج).

اللّه، مَن صدَّق باللّهِ ووحّده، وتطلبون الزّيغَ عنِ القصدِ والحقِّ، واذكروا نعمةَ اللّهِ عليكم حينَ كُنتُم مُستَضعَفِينَ لِقلّتِكُم فَصِرتُم أعِزَّةً لِكَثرَةِ عَدَدِكم، وانظروا ما نزلَ بِالأمم السّابقةِ مِنَ العَذابِ والنَّكالِ حينَ عَتَوا عن أمرِ ربِّهم، وعصَوا رسلَه، وكيف وجدوا عقبى عصيانِهم إيّاه[1].

التّحذيرُ منَ الصّدِّ عن سبيلِ اللهِ، والعِبرةُ بعاقبة أهلِ الاعوجاج والفساد

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

جملة ﴿وَلَا تَقْعُدُواْ﴾ بين الكناية والاستعارة التّمثيليّة:

نهاهم عنِ الاقتداء بالشّيطانِ، بلفظ ﴿وَلَا تَقْعُدُواْ﴾؛ ليكونَ كنايةً عن ملازمتهم للإفساد، ومواظبتهم عليه مواظبةً لا يَفْتُرونَ عنها، ووجهُ الكنايةِ هو أنَّ الملازمَ للمكانِ يقعدُ طلبًا للرّاحةِ، كما أنَّ مَن أراد أن يبالغَ في تكميلِ أمرٍ منَ الأمورِ، قعدَ حتَّى يصيرَ فارغَ البالِ، فيمكنهُ إتْمامَ المقصود، أو يكونُ الكلامُ على طريقِ الاستعارةِ التَّمثيليَّةِ، إذ عُبِّر بالقعود مجازًا عن ترصّدهم لمَن آمن باللّه، ومواظبتِهم عليه، إذ مثّلَ تهديدُهم وصدُّهم عن سبيل اللّه، وطلبُهم أن تكون زائغةً، بمَن يريدُ أن يقطعَ الطَّريقَ على السّابلةِ فيكمُن لهم من حيثُ لا يدرون، ويترصّدُ بهم من حيث لا يشعرون، كما يقعُدُ القُطّاعُ للقطع على السّابلةِ في الطّريق، والمعنى: صدُّ المؤمنين عن سبيلِ اللّه، وقطعُه عليهم، بما يفعلونه منَ التّهديدِ وغيرِه، كي يسلكوا سبلًا أخرى غير سبيل الحقِّ[2].

النّهيُ عن ملازمةِ الإفسادِ والمواظبةِ عليه

دلالةُ الباء في شبه الجملة: ﴿بِكُلِّ صِرَٰطٍ﴾:

الباءُ للإلصاقِ، والمعنى: قعودُهم ملصقٌ بكلِّ صراطٍ من مناهجِ الدّين، وأنَّ القاعدَ ملابسٌ المكانَ لا ينفكُّ عنه، ويُحتملُ أن تكونَ

تنوّعُ معنى الباء توسّعٌ في المعنى

(1) ابن جرير، جامع البيان: 12/556، والبغويّ، معالم التّنزيل: 2/214.

(2) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 14/212، والبيضاوي، أنوار التّنزيل: 3/7، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/219، والشّهاب، حاشية على تفسير البيضاويّ: 4/188، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/ - 246.

الباءُ للمصاحبةِ بمعنى ملازمتِهم لكلِّ صراطٍ؛ ويحتملُ كذلك أن تكونَ ظرفيّةً بمعنى (في)؛ لأنّ القاعدَ يحلُّ بمكان قعوده، وأن تكونَ بمعنى (على)؛ لاستيلاء القاعدِ على المكان، وحروفُ الجرّ تتعاقبُ في مثل هذا الموضع؛ لتقارب معانيها، مع مناسبةِ معنى كلِّ حرفٍ لسياقِه، ففي التّعبير توسُّعٌ في المعنى[1].

دلالةُ التّعبيرِ بلفظ العموم ﴿بِكُلِّ﴾:

تنـوّعُ المـرادِ من كلمة (صـراط)، يـوسّـعُ المعنى ويلائمُ الواقع

في قوله تعالى ﴿بِكُلِّ صِرَاطٍ﴾، لمّا كان لفظُ ﴿بِكُلِّ﴾ للعموم، والسّياقُ خاصٌّ بقوم شعيبٍ، دلَّ على أنَّ المرادَ العمومُ العُرفيّ؛ أي: كلِّ صِراطٍ مُبلِّغٍ إلى القريةِ، أو إلى منزلِ شُعَيبٍ[2] عليه السلام، فيكون لفظُ الصّراط على حقيقته، وقطعُ كلمة (صراط) عنِ الإضافة، يُرشِّحُ التّعبيرَ المجازيَّ، والأوّلُ مرادٌ، والثّاني أيضًا مرادٌ، وفي كلِّ معنى بلاغيٌّ لايعارض الآخر، فالصّراطُ حقيقةٌ من وجه، ومَجازٌ من وجه، وهما متعانقان لا متعارضان.

مجازُ التّعبير في لفظ ﴿صِرَاطٍ﴾:

المرادُ منَ الصّراط معناه المَجازيُّ

لمّا كان القعودُ ليس على معناه الحقيقيّ، كان لفظُ ﴿صِرَاطٍ﴾على المجاز كذلك، والمعنى: بكلِّ شريعةٍ من شرائعِ الدّين، والمعنى: "ولا تقعدوا بكلّ طريقٍ من طرق الحقّ والهداية والعمل الصّالح؛ تُهدِّدون سالكه، وبذلك تمنعون طالبي الخير منَ الوصول، وهم أهل الإيمان الّذين يؤمنون باللّه، وتريدون أنتم الطّريق المعوجّ"[3].

نكتةُ تعليقِ القعود بالصّراطِ، وتعليقِ الصّدِّ بسبيلِ الله:

مـنـاسـبـةُ كـلِّ فعلٍ ما تقيَّدَ به

لمّا كان الصِّراطُ هو الطَّريقَ المستقيمَ الموصِلَ إلى الحقِّ، جعلَ القعودَ له؛ لِما في القعودِ من معنى الملازمةِ والتّرصُّدِ، ولِتشبيههم

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 5/107، والسّمين الحلبيّ، الدّرّ المصون: 5/376، والنّيسابوريّ، غرائب القرآن: 3/285، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/246.

(2) ابن عاشور، التّحريروالتّنوير: 8/246.

(3) لجنة من علماء الأزهر، المنتخب في تفسير القرآن الكريم، ص: 218.

بحالِ الشَّيطانِ في قعودِه الصّراطَ المستقيمَ، ولمّا كانَ سبيلُ اللّهِ هو الطَّريقَ السَّهلَ، المختصَّ بسببِ الإضافةِ الّتي أفادَت معنى التّشريفِ والتّعظيمِ كما تقدّم، جعلَ الصّدَّ له، فناسبَ كلُّ فعلٍ ما تقيّد به.

نكتةُ التّعبيرِ عن طرق الدّين المتعدّدة بالصِّراط:

الصّراطُ المستقيمُ واحدٌ وشرائعُه متعدّدة

عُبِّرَ عن طرقِ الدِّين بالصِّراطِ المقتضي تعدّدَ الصّراطِ وتشعّبَه، مع أنَّ اللّه تعالى قال: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا﴾ [الأنعام: 153]؛ للإشعارِ بأنّ كلَّ نوعٍ منها داخلٌ ضمن وحدةِ الصّراط، فأنواعُ الصّراطِ الحقِّ وشرائعُه تتعدّد[1]، ولمّا كان صراطُ الحقِّ واحدًا، وطرقُ الدِّين والتَّعبُّدِ متشعِّبَةً إلى معارفَ وحدودٍ وأحكام، أتى بلفظ ﴿بِكُلِّ﴾، على معنى بكلِّ طرقِ عبادةِ اللّهِ، أو بكلِّ طرقِ الدّينِ الّتي هي شرائع في الصّراط المستقيم[2].

من دلالات إظهار الجلالة:

تكثيرُ المعاني بمجيء الاسمِ الجليلِ الظّاهرِ، وتعظيمُ السّبيل

في قوله سبحانه: ﴿وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ جاء التّصريحُ باسم الجلالة (اللّه)، ولم يقُلْ: (وتصُدُّون عنه)، فوضع الاسمَ الجليلَ ظاهرًا، موضع المضمرِ؛ بَيانًا للصّراطِ، في قوله: ﴿بِكُلِّ صِرَٰطٍ﴾، ودلالةً على عظم ما يصدُّون عنهُ، وزيادةً في تقبيحِ ما كانوا عليه، وتذكيرًا بعظم الذّنب الّذي يرتكبونه[3]، وفي الإضافة الاختصاصُ، فهم يصدُّون عن سبيلِ اللّهِ، وليس عن سبيلِ الشّيطانِ، كما أفادتِ الإضافةُ تشريفَ هذا السَّبيلِ وتعظيمَه، وفيها إشعارٌ بالتّحذير منَ الصّدّ؛ لإضافةِ السَّبيلِ إلى الاسم الجليل الّذي يتضمّنُ معنى الألوهيّة، وقد أفادَ الحرفُ معنى المجاوزة، بمعنى: تصدُّون مَن آمنَ باللّه أو بالصّراط الحقِّ؛ لكي يتجاوزَ المؤمنُ سبيلَ اللّه ويبتعدَ عنه.

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/128، والبيضاوي، أنوار التّنزيل: 3/23، والقونويّ، حاشية على تفسير البيضاويّ: 8/441.

(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/128، والبيضاوي، أنوار التّنزيل: 3/23.

(3) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/128، والبيضاوي، أنوار التّنزيل: 3/23، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/247.

مناسبةُ المضارعيّة في: ﴿تُوعِدُونَ﴾ و﴿تَصُدُّونَ﴾ و﴿تَبْغُونَهَا﴾:

ذُكرت الأفعالُ في الآية الكريمة بصيغة المضارع لتكرّرِ هذه الأحوالِ منهم، وأنَّهم مستمرّون عليها، وفيه تقبيحٌ لأفعالهم إذِ اعتادوها، وجعلوها عادةً مستمرّةً، وفيه منَ الشّناعة عليهم ما فيه.

مَن تعوّد فعلَ الضّلال ماتَ إحساسُه ببشاعة المشين منَ الأفعال

مناسبةُ تقييد النّهي بالأحوال:

أفادَ النّهيُ عنِ القعودِ بتقييدِه بالأحوالِ الّتي جاءَت بصيغةِ الجملِ الفعليَّةِ، في قوله: ﴿تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِهِۦ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾؛ الإشعارَ بما كانَت حالُهم عليه منِ ارتكابِ الأفعالِ القبيحةِ، والمعنى: (ولا تقعدوا موعدين مهدّدين وصادّين عن سبيل اللّه، ولا أنْ تبغوها عِوَجًا)، فنهاهم عنِ القعود بصراطِ اللّه، حالَ الاشتغالِ بأحدِ هذه الأفعالِ، ومن براعةِ معاني القرآن، أنَّ أحدًا لا يمكنه منعُ غيرِه من قبول مذهبٍ أو مقالةٍ، إلّا بأحد هذه الطّرق الثّلاثة[1].

الطرقُ الثّلاثةُ سببٌ للإقناعِ بالمفاسد والانحراف عنِ السّبيل القويم

بلاغةُ حذفِ مُتعلَّقِ ﴿تُوعِدُونَ﴾:

حُذِفَ الموعَدُ به؛ للإشعارِ بعمومِ ما كانوا يوعِدونَ به، ولتذهَبَ النَّفسُ فيه كُلَّ مَذهَبٍ منَ الشَّرِّ الّذي كانوا يضمرونه[2].

الحذفُ لإفادةِ العمومِ، ولإيضاح المقصود منَ السّياق

بلاغةُ تقديمِ الجارّ والمجرور على المفعول به:

قُدِّمَ الجار والمجرور ﴿عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ على المفعول به ﴿مَنْ﴾؛ لتعظيم شأنِ الصّدّ عن سبيلِ اللّه، والاهتمام به؛ للإشعارِ بعظم الذّنبِ واستحقاقِ العقوبةِ بسببِه، وكأنّ الصَّدَّ عن سبيل اللّه هو محلُّ الإثم، ومناطُ القبح، بِغَضِّ النّظرِ عنِ المصدود.

تعظيمُ ذنبِ الصَّدِّ عن سبيل الله، واستحقاقُ العقوبةِ بسببِه

نكتةُ التّعبيرِ بالاسم الموصول وصلته:

في قوله تعالى في قوله: ﴿مَنْ ءَامَنَ بِهِۦ﴾، اصطفى النّظمُ الكريمُ

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/128، والفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 14/315، والنّيسابوريّ، غرائب القرآن: 3/285.

(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 5/105، والسّمين الحلبيّ، الدّرّ المصون: 5/376.

الاسمَ الموصولَ العامَّ المستخدمَ غالبًا في العقلاء، ليشملَ المفردَ والمثنى والجمعَ والمؤنّثَ والمذكّرَ منَ العقلاء، وفيه إيجازٌ بليغٌ، كما أنّ في ذكره بناءَ الخبرِ على مضمونِ الصّلة، فإيعادُ مَن كانوا يوعدونه، وصدُّهم له عن سبيل الله، بسبب إيمانِهم بالله ورسوله شعيبٍ عليه السلام أو بسببِ إيمانِهم بالصّراط الّذي يوصِلُ إلى الله تعالى، ولمّا كانت صلةُ الموصول معلومةَ الانتساب عندَ المخاطَبين دلَّ على أنّهم كانوا على علمٍ بالإيمانِ عارفين به وبحقوقِه.

صدُّ الكافرين إمّا لأفرادِ المؤمنين وإمّا لجماعاتِهم

بلاغةُ التّعبير بالمضيّ في جملة الصّلة ﴿مَنْ ءَامَنَ بِهِۦ﴾:

يحتملُ أن تكونَ الدّلالةُ الزّمنيّةُ للفعل الماضي ﴿ءَامَنَ﴾ على ظاهرِها؛ أي: مَن آمنَ فعلًا وتحقَّقَ إيمانُه، فيكون الكلامُ على مقتضى الظّاهر، والمعنى: تصدّون المؤمنين عن طاعةِ الله وعبادتِه، ويحتملُ أن يكونَ مُستعمَلًا على خلافِ مقتضى الظّاهر، بقصدِ المستقبلِ، فيكون المرادُ مَن قصدَ الإيمانَ؛ للإيذانِ بتَحقيقِ عَزمِ القاصِدِ على الإيمانِ، فلولا أنّهم يَصُدّونَه لكان قد آمَنَ، والمعنى: تصدّون مَن أرادَ الإيمانَ بإغوائِه ومخادعتِه[1].

التّعبيرُ بالماضي تبشيعٌ للصّدّ عمّنِ استقرَّ في الإيمان وثبتَ عليه

نكتةُ التّعبيرِ بالفعل ﴿وَتَبْغُونَهَا﴾ في سياق الآية:

عُبِّرَ بلفظ ﴿وَتَبْغُونَهَا﴾؛ لإفادة المبالغةِ في طلبِ زيغِ السّبيلِ، وتعدّيهم في هذا البغي، وإفراطِهم فيه، وأنّهم ظالمون فيه لحرصِهم على طلبِ تجاوز الحقِّ إلى الباطلِ.

دلالةُ لفظ (وتبغونها) على التّعدّي في الابتغاء والإفراطِ فيه

دلالةُ العطف على المغايرة وترابط المعاني:

جاءتِ الجملُ الفعليّةُ المتعاطفةُ في قوله: ﴿تُوعِدُونَ﴾، ﴿وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾، ﴿وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾، في موقعِ الحال منَ الضّمير في ﴿تَقْعُدُواْ﴾، ولمّا كان العطفُ على معنى المغايرةِ دلَّ على أنّهم كانوا

المغايرةُ في العطفِ تفيدُ تنوّعَ المعنى، وتعدّدَ وجوهِ الجريمةِ

(1) الماتريديّ، النّكت والعيون: 2/239، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/246.

يخوّفونَ المؤمنينَ، أو مَن يريدُ الإيمانَ، ويقطعونَ عليهم طريقَ الحقِّ حِسًّا أو معنىً، بأن لا يُمَكِّنوهُ منَ الذّهابِ إلى الرّسولِ ليسمَعَ كلامَهُ، ويطلبونَ الزَّيغَ والضَّلالَ لسبيلِ اللّه[1].

براعةُ التّعبيرِ بين الحقيقةِ والمجازِ، في جملة: ﴿مَنْ ءَامَنَ بِهِۦ﴾:

طريقُ الحقِّ لا اعوجاجَ فيه؛ لأنّه طريقُ اللهِ المستقيمُ

يحتملُ قولُه تعالى: ﴿وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾ أن يكونَ على الظّاهرِ، بمعنى: تطلبونَ الزَّيغَ والضَّلالَ لمَنْ يطلبُ الإيمانَ، بإلقاءِ الشُّبهِ على المؤمنين، أو وَصْفِ السَّبيلِ للنّاس بأنَّها معوَجَّةٌ، ويحتملُ أن يكونَ على سبيلِ المجاز تهكُّمًا بهم؛ أي: إنَّهم يطلبون لسبيلِ اللّه ما هو محالٌ؛ لأنّ طريقَ الحقِّ لا يَعوَجُّ[2].

مناسبةُ الحديث عن تكثير العدد:

السّعيُ إلى تقليلِ المؤمنين معصيةٌ عظيمةٌ

في قوله سبحانه ﴿وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ كُنتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ﴾، ذكّر نبيُّ اللّه شعيبٌ عليه السلام قومه بتكثير اللّه تعالى لعددهم حيث صاروا عددًا كثيرًا في زمنٍ لا يُعهَدُ في مثلِه مصيرُ أمَّةٍ إلى عددِهم، فقابلوا نعمةَ تكثيرهم بكفرانِها لا بشكرِها؛ بالسّعي إلى تقليل المؤمنين، بمنعِهم أو بمنع مَن يريدُ الإيمانَ منَ الدّخول في دين اللّه، عن طريقِ تهديدهم وصدّهم عن سبيلِ اللّه كفرانًا منهم، ففيه تعجيبٌ من حالِهم، وزيادةٌ في تقبيحِ فعلِهم، وإشعارٌ بكفرانِهم لنعمةِ اللّه عليهم بأنْ كثّرهم، وليقابلوا هذه النّعمة باعتبار نقمته تعالى، مِنَ الّذين غضب عليهم، إذِ استأصلهم بعد أن كانوا كثيرًا، فذلك من تمايزِ الأشياء بأضدادها، فلذلك أعقبه بقوله: ﴿وَٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾[3].

(1) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 14/315، والبيضاوي، أنوار التّنزيل: 3/23، والقونويّ، حاشية على تفسير البيضاويّ: 8/443.

(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/128، والفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 14/315، والبيضاوي، أنوار التّنزيل: 3/23.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/248.

سرُّ التّعبيرِ بـ ﴿إِذْ﴾ في قوله: ﴿وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ كُنتُمْ قَلِيلًا﴾:

التّذكيرُ بالحال الماضي، أكبرُ مُعينٍ على الاعتبار والشّكر

يحتملُ ﴿إِذْ﴾ أن يكونَ مفعولًا لـ ﴿وَٱذْكُرُوٓاْ﴾، والتّقدير: واذكروا على جهةِ الشُّكرِ وقتَ كونِكم قليلًا فَكَثَّرَكُم اللّه؛ ليفيدَ المبالغةَ في المعنى، للأمرِ بذكرِ وقتِ النّعمة المقتضي تعظيمَها، لأنّها حالَّةٌ فيه، ويحتملُ أن يكونَ ظرفًا، والتّقديرُ: واذكروا النّعمةَ وقتَ كونِكم قليلًا فكثّركم اللّهُ، ولمّا كانَ الظّرفُ ﴿إِذْ﴾ في مثل هذا السّياقِ يدلُّ على تعظيم شأنِ ما يُذكَرُ بعدَه، ويُشعِرُ بالتّعليلِ، دلَّ على الاهتمامِ بشأنِ هذه النّعمة العظيمة الّتي كانوا يحتاجونها، وأنَّ وجودَها سببٌ لِذكرِها ووجوبِ شكرِها، فيكون المرادُ اشكروا اللّه بالإيمان باللّه والامتثال لأمرِ رسولِه، بفعل الطّاعاتِ والبعد عنِ المعاصي؛ لأنّكم كنتم قليلًا فكثّركم[1].

نكتةُ التّعبير بقوله: ﴿فَكَثَّرَكُمْ﴾:

تنوّعُ معنى التّكثير في مقابل تنوّع معنى التّقليل

لمّا كان قولُه: ﴿قَلِيلًا﴾ يحتملُ أن يكونَ في الكمِّ أو الكيفِ؛ أي: في العددِ أو في العدّة أو في الضّعفِ، ولا تقاطعَ بينها، دلَّ على أنَّ لفظَ ﴿فَكَثَّرَكُمْ﴾ يفيدُ تكثيرَ عددِكم بعدَ القلَّة، وتكثيرَكم بالغنى بعدَ الفقر، وتكثيرَكم بالقوّة بعدَ الضَّعف، ووجه ذلك أنّهم إذا كانوا فقراءَ أو ضعفاءَ، فهم بمنزلةِ القليلِ، في أنَّه لا يحصلُ من وجودِهم قوَّةٌ وشوكةٌ، فأمّا تكثيرُ عددِهم بعد القلَّةِ فهو بما وُلِدَ لهم حتَّى كثُرَ عددُهم، ويفيدُ طولُ أعمارِهم، تكثيرًا للنِّعَمِ وتأكيدًا لها[2].

مجازُ التّعبيرِ في قوله: ﴿وَٱنظُرُواْ﴾:

الأمرُ على معنى التّهديد والتّخويف، ففيه تهديدٌ لهم، وتذكيرٌ

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/128، والفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 14/315، والبيضاوي، أنوار التّنزيل: 3/23، وأبو حيّان، البحر المحيط: 5/108، والسّمين الحلبيّ، الدّرّ المصون: 5/387، ورشيد رضا، تفسير المنار: 8/476.

(2) الزّجّاج، معاني القرآن وإعرابه: 2/355، والماتريديّ، النّكت والعيون: 2/239، وأبو حيّان، البحر المحيط: 5/109.

بعاقِبَةِ مَن أفسدَ قَبلَهم، وتمثيلٌ لهم بمَن حلَّ به العذابُ، مِن قوم نوحٍ وهودٍ وصالحٍ ولوطٍ، وكانوا قَريبي عهدٍ بما أصاب المُؤتَفِكَةَ، والمعنى: فاعتبروا بهم؛ أي: لما يفيدُه الأمرُ بالنّظر[1].

النّظرُ يحقّقُ الاعتبارِ، ويفضي إلى الإيمان والادّكار

بلاغةُ التّعبير في قوله: ﴿وَٱنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾:

الأمرُ بالنّظر والاعتبارِ، وإن كانَ المقصودُ منه الكافرون من قوم شعيبٍ ابتداءً، ولكن فيه تذكيرٌ للمؤمنين منهم بنعمة الله، فإنَّها تشملُهم وبالاعتبار بمَن مضَوا فإنَّه ينفعُهم[2].

الأمرُ بالاعتبار للكافرين وللمؤمنين

التّعبيرُ بـ ﴿كَيۡفَ﴾ لانتظام عمومِ الأحوالِ فيه:

عبّرَ بـ ﴿كَيۡفَ﴾؛ لترك التّفصيلِ دلالةً على المعنى بلفظٍ واحدٍ على سبيلِ العموم، احترازًا عن التّطويل، لأنَّه يورثُ الملَلَ، ولأنَّه غيرُ وافٍ بالحصرِ ولاختلافِ الأحوالِ باختلافِ المقامِ، فكان التّعبيرُ بلفظٍ يعمُّ جميعَ الأحوالِ أوفقَ بالمقامِ، فجاءَ الاستفهامُ المجازيُّ على سبيل التّهويلِ، والتّخويفِ، والتّعجيبِ ممّا أصابهم.

التّعبيرُ بلفظٍ يعمُّ جميعَ الأحوالِ أوفقُ بالمقامِ

سِرُّ الدّعوة إلى النّظر في عاقبة المفسدين:

في قوله تعالى: ﴿وَٱنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾، تعريضٌ بالوعيدِ للمشركين وقتَ نزولِ القرآن، ومَن يأتي بعدَهم بسوءِ العاقبةِ، إنِ استمرّوا على شركِهم وإفسادِهم؛ ليحذروا من أن يصيبَهم مثلُ ما أصابَ الكافرين قبلَهم، وفيه تعريضٌ بالوعد للمسلمين كذلك، وبالتّسلية لهم على ما يلاقونه من مفسدي أهلِ الشِّركِ؛ لانطباق حالِ الفريقين على حال الفريقين من قوم شعيبٍ[3] عليه السلام.

تعميمُ خطابِ اللهِ تعالى للنّاسِ جميعًا

دلالةُ التّعبير بلفظِ ﴿ٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾:

لمّا كان الفسادُ منَ المعاني العامّةِ المذمومةِ، ولم يُؤتَ لـ ﴿ٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾

(1) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 3/23، وأبو حيّان، البحر المحيط: 5/109، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/284، والقونويّ، حاشية على تفسير البيضاويّ: 8/443.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/249.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/249.

الإفسادُ يكون في النّفوسِ، والمجتمعِ، والصّدِّ عن دينِ الله

بمتعلَّقٍ، دلَّ على أنَّ المرادَ بـ ﴿ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ عمومُ الإفسادِ، فيشمل الّذين أفسدوا أنفسَهم بعقيدة الشّرك، وبأعمال الضّلال، وأفسدوا المجتمعَ ببخسِ النّاس أشياءهم ومخالفةِ الشّرائع، وأفسدوا النّاسَ بإمدادهم بالضّلال، وصدّهم عن الهدى، ولمّا قطعَ لفظَ ﴿ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ عنِ المتعلَّق اعتُبِرَ صفةً مشبّهةً، وقُطِعَ عن مشابهةِ الفعلِ؛ ليفيدَ معنى ثباتِ وصفِ الفسادِ والإفسادِ لهم؛ أي: عرفوا بفسادِهم في أنفسِهم، وإفسادِهم غيرَهم[1]، وفي التّعبير باسم الفاعلِ إشعارٌ بارتكابِ المنهيّ، في قوله: ﴿وَلَا تُفْسِدُواْ فِي ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا﴾، كما أنّ في التّعبير به إلاحةٌ إلى سوء العاقبة، وسببها.

بلاغةُ عطف الفعل (انظُرُوا) على (اذكُرُوا):

الحملُ على الطّاعة بطريق التّرغيب أوّلًا ثمّ التّرهيب ثانيًا

بدأ بالتّرغيب في قوله: ﴿وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ كُنتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ﴾، ثمّ عطفَ عليه التّرهيب بقوله: ﴿وَٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾، فقُصِدَ بالأمرِ بـ ﴿وَٱذْكُرُوٓاْ﴾؛ أنّهم إذا تذكّروا نعمَ اللّهِ عليهم انقادوا وأطاعوا، وبقوله: ﴿وَٱنظُرُواْ﴾؛ أنّهم إذا عرفوا أنّ عاقبةَ المفسدينَ المتمرِّدينَ ليست إلّا الخزيَ والنّكالَ، احترزوا عنِ الفسادِ والعصيانِ، وأطاعوا فكانَ المقصودُ من هذين الكلامين حملَهم على الطّاعةِ بطريقِ التّرغيبِ أوّلًا، والتّرهيبِ ثانيًا[2].

المتشابهُ اللّفظيُّ:

التّفريقُ بين قعودِ الشّيطانِ على الصّراطِ، وقعودِ الكافرين

جاء في سورةِ الأعرافِ حكايةً عنِ الشّيطانِ قولُه تعالى: ﴿لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾﴾ [الأعراف: 16]، وقال هنا في دعوة شعيب لقومه: ﴿وَلَا تَقْعُدُواْ بِكُلِّ صِرَٰطٍ﴾، وبيانه: أنّه لمّا كان الشّيطانُ هو الشّرَّ، ويريدُ إغواءَ بني آدم كلِّهم بأنواعِ الإغواء كلِّها، تعدّى الفعلُ (قعدَ) إلى الصِّراط؛ ليفيدَ عمومَ الإغواءِ، ولمّا كان شعيبٌ عليه السلام، يريدُ نهيَ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/249.
(2) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 14/315.

قومِه عن مخالفاتٍ معيّنةٍ اعتادوا عليها، تعدّى الفعلُ بالباء الّتي تفيدُ الملاصقةَ والظّرفيّةَ؛ لتدلَّ الباءُ على بعضِ المخالفات.

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

(سبيل) و(طريق):

السَّبيلُ فيه معنى القصد معَ الرَّغبة، والطّريقُ هو المسلكُ المطروقُ عادةً

المعنى المحوريّ للسّبيل امتدادٌ إلى أسفل مع اتّصال، كالثّياب الممتدّة إلى الأرض، والمطرُ يبدو خيوطًا ممتدّةً منَ السّحاب إلى الأرض"[1]، "والطّريق: ما بين السِّكَّتَين منَ النّخل، ومنَ الطّريق أُخِذتِ الطّريقةُ: السّيرةُ والمَذهبُ"[2]، ولم يقلْ هنا طريقَ اللّهِ، ولا صراطَ اللّهِ، لِما في لفظِ السَّبيلِ من معنى القصدِ لِمَن يسلكُه، والشّروعِ فيه معَ الرَّغبة[3]، ولمّا كان السَّبيلُ بمعنى: الطّريق الّذي فيه سهولة[4]، دلَّ النّهيُ على قبحِ ما يفعلونه، مِن صدِّ مَن آمنَ حينَ يقصِدُ سلوكَ سبيلِ اللّهِ، ويشرعُ فيه على سبيلِ المحبَّة، وفي التّعبير توبيخٌ لهم إذ لم يسلكوا سبيلَ اللّه السّهلَ بل صدّوا عنه.

(تبغونها) و(تريدونها):

البغيُ ظلمٌ وعدولٌ عنِ الحقّ، والإرادةُ عزمٌ وقصدٌ ورجاءٌ

"المعنى المحوريّ للبغي: تزايدُ الشّيءِ نموًّا وقوّةً، أو توصّلًا لاكتمال حاله، وبغى عليهم عدل عنِ الحقّ واستطال"[5]، فالبغيُ طلبٌ على وجه الظّلم والتّجاوز، والعدولُ عنِ الحقّ، لذا هو المناسبُ لهذا السّياق بقرينة ما قبل الفعل وما بعده من قوله: ﴿عِوَجَاۚ﴾، والإرادةُ عزمٌ وقصدٌ وتمنٍّ.

(1) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (سبل).
(2) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (طرق).
(3) العسكري، الفروق اللّغويّة، ص: 298.
(4) الرّاغب، المفردات: (سبل).
(5) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (بغو، بغى).

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الثالث عشر، سورة الأعراف من الآية 14 إلى الآية 87
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1445هـ - 2024م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2024م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: سورة الأعراف من الآية 14 إلى الآية 87 [إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 13 ، 804 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-768-09-8
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 13 : سورة الأعراف من الآية 14 إلى الآية 87.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن- ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-768-09-8
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-6551762 بتاريخ 2023/12/20م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»